الفصل الثالث :

الغـــض مـــن شـــأن العظمـــة

الغض من شأن العظمة

فى الفصل السابق ذكرنا أن (إنكار الذات) خصيصة من خصائص العمرية وتلك الصفة تأصلت فى نفس عمر إلى الدرجة التى كانت تصدر عنه عفوًا ، وتلقائيا بدون تعمد ويخيل للمتأمل أن نفس عمر نفسان ، أو أن عمر يجرد من نفسه نفسا أخرى تكفكف من تمادى النفس إن تمادت ، وتقلل من تجاوزها الحدود إن تجاوزت ، وتمنعها من الشطط إن جمحتْ .

وأصبحت تلك طبيعة فى عمر ، تصدر عنه صدورًا طبيعيًّا بدون تكلف ، حتى إنه كان يبادر إلى هذا الفعل قبل أن يشعر بشىء من الزهو ، كنوع من الوقاية ، ولا يعرف العظيم إلا من هذا الأمر ، حينما تكون هناك خصلة أو صفة أو خلق ما حميد فيأتى هذا الإنسان بداية محاولاً أن يتخلق به ، ويتطبع به ويظل مداومًا عليه مجتهدًا ألا يفارق هذا الخلق وألا يفارقه حتى يصير طبعا أصيلا ، ولا يكتفى بذلك بل يحاول أن يتجاوز هذا الخلق ويضيف إليه من عند ياته .... مثل صفة الكرم فيحاول شخص ما أن يتصف بتلك الصفة ، ويدأب عليها ، ويشتهر بها وتشتهر به فتصير خلقًا من أخلاقه ، وطبعًا من طباعه ولا يتوقفْ الأمرُ عندَ ذلك ، بل يفعلْ ما من شأنه أن يتعدى حدودَ تلك الصفة ، ويصبحُ فعلُه رمزًا أو عنوانًا من عناوين الجود والكرم ، إذا ذكر يذكر تبعًا له الكرمُ ، فهو المقدمُ والصفة لا حقة له ، بل تستمد الصفة معناها وقوامَها منه ، فهو نبعٌ أو موردٌ لتلك الصفة .

" ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها " [1] .

١- عبقرية عمر – عباس محمود العقاد (٦١).

وخذ مثلا صفة (المساواة) ، ففى أن يسوى شخص ما بينه وبين المحيطين به ...هذا أمر طيب .

وأن يسوى شخص حَازَ من القدراتِ والمواهب ما ينزله منزلةً ساميةً فيمن حوله ويشهد المحيطون به بتميزه ، ويأتى ذلك الشخص ويسوى بينه وبين من لا يملك تلك القدرات والمواهب .. فهذا نوع من النبل والشرف .

وأن يأتى حاكم مظفر فتحت على يديه مشارق ومغارب ، وبكلمة منه ترفع أقدار قوم ، وتخفض أقدارُ آخرين ، ويسوى بينه وبين رعيته ... فهذا يتجاوز بآمادٍ النبل والشرف

وعمر لا يفعل ذلك كنوع من التفضل أو المن ، ولكنه يفعله لأن هذا طبع مركوز فيه ولا يملك أن يمتنع عنه ، أو يتحول عنه .

" ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منه شخصا آخر غريبًا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدًا وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب بخ بخ ياعمر!.....ويحك يا بن الخطاب ؟

ماذا يقول عمر ؟

وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى ...

إلى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث من خليقة التسوية بين جميع الناس وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس " (١) .

١- عبقرية عمر – عباس محمود العقاد (٣٤).

موقف عمر من العظمة :

لا يعرف قيمة العظمة فى الحياة الإنسانية وأثرها فى النفوس إلا كل عظيم وللعظمة أخطارها ومضارها .

خطورة على المعظِّم ، وخطورة على المعظَّم .

أما خطورة العظمة على المعظَّم :

فهو الغرور والكبر ، وكما وضحنا فى الفصل السابق أن العظمة قد تصنع سياجًا حول العظيم لتسد منافذ التواصل بينه وبين من حوله ، إحساسًا أنه قادر على العطاء، وأن من حوله فى حاجة ماسة إليه وأن لا أحد يغنى عنه شيئا ، نوع من التعالى والتكبر والغرور يؤدى به إلى الانعزال والتقوقع الذاتى ، وينسى العظيم أو يتناسى وهو فى غمرة تعاليه وانعزاله أنه سد الروافد التى ساعدته أو هيأته أو تجمعتْ لتكون منه عظيمًا ، لأن العظمة أو البطولة شيء مكتسب ، تضافرت عوامل كثيرة ، وحدث وفاق واتفاق مع شخصية ما كانت مهيأة أو لديها من صفات عقلية ونفسية - لتستثمر تلك العوامل أفضل وأحسن استثمار أو تستغلها كأنبل ما يكون الاستغلال ، وبذلك تكون العظمة . فلم يولد العظيم عظيمًا ، وإنما عمادُها الإرادة والتصميم والعزم مع شيء من مهادنة الظروف أو توافقات واتفاقات مع القدر.

والعظمة ليست صفةً جامدة ، أو وسامًا يوضع على صدر العظيم ، ولكنها قيمة متجددة ، أفادت وساهمت فى رقى وتقدم وتطور جماعة ما ، فى زمن ما ، فى مكان ما وإن تلك القيمة ما زلت تفيد ، وستفيد فى المستقبل .

أو بمعنى آخر إن العظمة حكم تصدره الأجيال المتواترة وإن أفكار وأفعال ومواقف شخصية العظيم أفادت أبناء زمنها ، وأن الشخصية ظلت متفاعلة ومتواصلة مع شتى مناحى الحياة ، وإن هذا العطاء والتواصل بين الشخصية وزمنها لم يتوقف بموت الشخص فقد ظل هناك تواصل وتفاعل من نوع آخر ، ليس مع الشخص الذى من لحم ودم ، ولكن مع (جوهر) الشخصية أو (روح) الشخصية ، الجزء أو الشيء الباقى على الزمان ، سمه ما شئتَ . وإن ذلك الجوهر أو الروح صالح وقادر على التواصل والتفاعل أقوى مما لو كان الشخص على قيد الحياة .

والتواصل والتفاعل لا يتم على أكمل صورة مع أبناء كل الأزمنة إلا إذا أدركوا أن فى ذلك الجوهر أو الروح الكثير من مختزنات العظمة ورصيد العبقرية ، وذلك الإدراك العميق والشامل هو ما سوف يخول لهم أن يقتدوا بالعظيم ، وبالتالى ما سوف يهيأ لهم ويعدُّهم لأن يكونوا هم أنفسهم عظماءَ ، لأنه لن يتسنى لهم إدراك ما فى الجوهر أو الروح إلا وهم على قدر من الاستعداد أو على نصيب من الإرادة ، أن يكونوا - فى وقت ما - جوهرًا وروحًا تستفيد منهم الأجيالُ القادمةُ .

لذا فأخطر شيء على العظيم هو العظيم نفسه ، إذا أدرك تلك العظمة إدراكا ذاتيا وتضخم هذا الإدراك ، وجعله يشعر أن ما وصل إليه هو بمجهود ذاته ، وليس لأحد آخر فضلٌ أو منةٌ عليه . نقطة فى غاية الحرج يصل إليها العظيم ، أو هو مرض تصاب به الذات

اعتقادٌ راسخٌ أن ما حققه وما وصل إليه يرجعُ لذاته ، إذن هو ينتظر من الآخرين المقابل ، وقضاء دين تلك العظمة ، ألا وهو الاعتراف صراحة له أنه فوق مصافهم ، من طينة أخرى ، من خلق آخر فوق المحاسبة ، فوق القانون ، ما يسرى على الآخرين لا يسرى عليه ... وتلك هى لحظة السقوط المدوى للعظيم .

كل هذا أدركه عمر بفطرته النقية ، وحدسه الثاقب ، فجميع المواقف التى تعرض لها عمر طوال مدة خلافته من نصر أو كسب أو منة أو فضل ، كل هذا لا ينسبه إلا لله ، وينبه من حوله إلى هذا ، ليس هذا فحسب بل ينكر ذاته إنكارًا مبينا.

والمبدأ الذى طبقه على نفسه طبقه على غيره ، فمن غير المعقول أن ينكر ذاته وهو الحاكم والخليفة وأمير المؤمنين ، ويسمحُ لآخر أن يعترف بعظمته ويطلب من الآخرين ذلك

" عن الحسن . قال : كان عمر قاعدًا ومعه الدِّرَّة والناس حوله ، إذ أقبل الجارود فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة . فقال : مالى ولك يا أمير المؤمنين ! فقال : مالى ولك أما لقد سمعتها قال : سمعتُها فمه ؟ قال خشيتُ أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك " .

قد يختلف الكثيرون مع عمر فيما فعله ، ولكن قد يغتفر لعمر إذا كان ما فعله إشارة إلى تغيير فى معايير تقدير الرجال ، مع رسوخ العقيدة الجديدة فى المجتمع

أو هو غيرة من عمر على مكانة الحاكم وولى الأمر وأمير المؤمنين ، بحيث انصرف الناس عن كل هذا ، والتفتوا إلى سيد ربيعة .

أو أن عمر رأى فى وجه الرجل إحساسًا بالغرور والتكبر حينما سمع كلام الناس، فى حضرة أمير المؤمنين ، والدليل على ذلك (فلما دنا منه) .

ثم لِمَ يلام عمر ؟ وقد بدأ بنفسه ، وألزم نفسه بتربية خلقية معينة فلم لا يلزم الآخرين بها ؟

وما فعله عمر ليس انتقاصًا من قدر الرجل ، وإنما هو فى حقيقة الأمر شهادة منه له بأنه كبير وعالٍ ورفيع المقام بدليل كلمة (أطأطئ منك) " .

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص يزحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهاب".

خطوط حمراءُ وضعها عمرُ، لا يسمح لأحدٍ بتجاوزها ، مهما كانت منزلته بل يثيره ويستفزه ذوو المنزلة وأصحاب الشأن ...

هل كان يتوجس منهم خيفة بما يملكون من تأثير وسطوة على الناس ؟ أكان يخشى أن تتكون طبقة تحوز من الامتياز ما يخولُ لها أن يكون لها تأثير قوى فى مصائر الأمور فى الدولة؟ ومع مرور الوقت يتضخم نفوذهم ، وتتراكم قوتهم ويكونون أقطابا تتمزقُ الدولة بينهم ؟

أيًّا ما كان الأمر ، فالأشخاص عند عمر وحوله لهم أدوارٌ ولهم مهماتٌ ، وهم أدواتٌ فى يد الدولة ، لا ينبغى لأحد أن يخل أو يفرط فى أداء هذا الدور ، كما أنه لا ينبغى ولا يجب لأحد أن يأخذَ أكثرَ من دوره الأمر هنا أمر سياسة قد اختطها عمر مع ولاته ومع كل عظيم ، فهو يحاسبهم غير ناظر إلى ما قدموه للدولة وللإسلام

بل إن شدة حسابه لهم تأتى على قدر عظمتهم ، فكلما علا الرجل وعظم كان عمرُ شديدًا عسيرًا فى حسابه . وإنه يتخذ الإجراء الحاسم والحازم إذا صدرت ضد الوالى شكاية من الرعية ، حتى لو كان الوالى بريئًا ، فكل هؤلاء مظنة الكبر والغرور بمالهم من أعمال عظيمة ، وأياد بيضاء . وموقفه واضح من (سعد بن أب وقاص) القائد المظفر ، وكذلك موقفه من (المغيرة بن شعبه) و(عمار بن ياسر) و(عمرو بن العاص) ، و (زياد بن أبى

سفيان) وقال فى تعليل عزله : (لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله ، وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه

" بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وإنما هو سبب من الأسباب التى ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا ؛ وهذه الأسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض إذا لم يتعهده نظرٌ ثاقبٌ وحسابٌ عسيرٌ.

فقد تزين له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس، ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة ، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل ، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد " [1] .

ربما لم ينظر عمر إلى الأمر من تلك الزاوية ، وربما لم يجل بخاطره ما ذكره الأستاذ العقاد من دوافع دفعت عمر إلى اتخاذ هذا الموقف المتشدد والحاد من ولاته وغيرهم ... هو ينظر إلى مناط الأمور، مبدأها المصدر الحقيقى والأوحد ، أما ما يتفرع عنه من أمور كثيرة ومتعددة فربما لم تكن تجول بخاطره ، فعماد كل خلل فى النفس الإنسانية ، وأساس كل فساد هو إعجاب المرء بنفسه ، وغروره وتكبره ، يتفرع عن هذا كل خلل أو انحراف ، وإذا قضينا على ذلك فقد اجتثثنا الداء من مكمنه

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (١١٥- ١١٦).

لذلك كان الولاة فى عهد عمر يرون أن الولاية ليست إلا تكليفا وتكليفا شاقا وحسابا عسيرا من عمر، ومثال ذلك حديثه (لعمار بن ياسر) بعد أن عزله وكان أميرًا على الكوفة قال :

- أساءك حين عزلتك ؟

- والله ما فرحتُ به حين بعثتنى وقد ساءنى حين عزلتنى

- لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكننى تأولت قوله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾[1]

يقول (عمار) : (ما فرحتُ به حين بعثتني) وكيف يفرحُ وهناك الرقيب والحسيب والذى يحصى عليهم كل كبيرة وصغيرة ، ومع ذلك فقد ساءه العزل ؛ لأن هناك مظنة تهمة أو تقصير أو إهمال أو استغلال نفوذ ، ولكن عمر لا ينتظر أن يحدث شىء من هذا .

تلك السياسة أو تلك السنة العمرية فى الغض من شأن العظمة لم يستثن منها أحدًا حتى (خالد بن الوليد) .

عظيمان وموقفان :

كان لا بد وأن يحدث صدامٌ أو مواجهة ، أو نقطة يتقابل فيها الرجلان وجها لوجه .

فعمر - كما ذكرنا - له موقف من العظمة ، ومن كل عظيم ، ويعتقد كما أن للعظمة خيراتها ومنافعها ، فإن لها مضارها وضحاياها ، وأول ضحية هو العظيم نفسه ... إذن فليحل بين العظيم وعظمته ، وسواء اتفقنا معه أم لم نتفق ، شايعناه فى رأيه أو لم نشايعه فإن لعمر مبررًا ، ومبررًا منطقيا لموقفه من خالد .

١- سورة القصص : الآية ٥ .

ولم لا نقول إن موقف عمر من خالد هو موقف عمر من عمر.

فعمر يرى أن لا فضل لأى إنسان مهما علا شأنه ، وعظمتْ قيمته فالفضلْ لا يُنسَبُ إلا لله ، فالله هو الذى أجرى على أيدينا ويسر لنا تلك الأفعال ، ووفقنا بفضله ومنَّته ، أن نتخذ تلك القرارات ، ونقف تلك المواقف ، التى وسُمِنا من أجلها بوسام العظمة .... فالأمر هنا أمر عقيدة .

وخالد يرى - وهو خليق أن يرى ذلك - أنه عظيم من عظماء الإسلام وقد حصل على شهادتين لم يفز بهما قائد آخر من قواد المسلمين ، الأولى شهادة من رسول الله ﷺ (سيف الله) والثانية شهادة من الصديق : (عقمت النساء أن يلدن مثل خالد) .

وتاريخه وسجله وانتصاراته تثبت أنه من طراز فريد من العظماء وللعظيم أن يرى آثار وانعكاس تلك العظمة على الآخرين .

حينما تساورُ تلك الأفكار خالدًا ، فلا لوم ولا تثريب عليه أن يطلب ما يوازى تلك العظمة .

وحينما يتذكر أن الصديق أرسل إليه وهو فى العراق وهو يحصد الجيوش الفارسية حصدًا ، ويرفع ألوية الإسلام ، وجيوشه تدك العاصمة الفارسية ومدنها دكًّا ، ويرسل إليه منتدبا إياه أن يذهب إلى الشام حيث الجيوش الإسلامية تقف عاجزة أمام الجيوش الرومانية ويطيل وقوفها ، ويضيق الصديق بهذا الأمر ، ويترك خالدٌ يد العراقَ وينتقل إلى الجبهة فى الشام حيث الجحافل الرومانية ، وفور وصوله يستل النصر من مكمنه ، وتنكسر الجيوش الرومانية ، وتتحطم جموعهم (ليس لها إلا خالد) .

إنسانيا يريد خالدٌ ثمرة هذا النضال الشريف ، مردود هذا العمر الذى أفناه فى ميادين القتال وهو يقف أمام الموت وجها لوجه ، يريد نوعًا من التشريف . نوعًا من التكريم ، نوعًا من الإعزاز ، معاملة استثنائية تتناسب مع عظيم وجليل ما قدم

وإنسانيا - أيضا- كان لا يرى للذين يجلسون فى العاصمة (المدينة) بعيدًا عن صليل السيوف ، وصهيل الخيول ، وبحار الدم ، الحق فى التدخل فى أعماله وأفعاله وتصرفاته ، فإذا كانوا قد أطلقوا يده فى محاربة الأعداء وعمل فكره وسيفه فى القضاء عليهم ، فلم يريدون أن يقيدوا يده ويحدوا من حريته بعد ذلك ؟!! .

وكان موقفه من أبى بكر الرفض حينما أرسل إليه يحاسبه فى الأموال ، ورد خالد عليه ردًّا جافيا : " إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك وعملك) وبالمنظور الحديث لو أحرز قائدٌ ما النصر فى معركة واحدة من معارك خالد الكثيرة ، لتوج رأسه بأكاليل الغار وأثقلت كتفاه وصدره بالنياشين والأوسمة ، ولرقى إلى أعلى المراتب ، وأعطى له صلاحيات وكرم تكريما عظيما .

إذن عمر يرى مالا يرى خالد .

وخالد يرى مالا يرى عمر.

عمر يرى أن خالدًا بلغ شأنًا من العظمة ينبغى أن ينهنه منها ، ويحد من عنفوانها فلا فضل فيما حققه خالد ... إن الفضل إلا لله.

وخالد ينظر فيرى انتصارات لم تُحقق إلا على يديه ، فى مواقف لم يغن غيره عنه فحق له التكريم ، وإن يُقدم له كفل ما قدم وأكثر.

ويصدر قرار عمر بعزل خالد بدون تردد .

ويقبل خالد قرار العزل بدون تردد .

وإن كان الرجلان قد افترقا فى البداية فإنهما قد التقيا فى النهاية فرقهما وجهة النظر وفكر ورأى كل منهما .

وقربتهما العظمة .

فكلاهما قد التقى على العظمة .

عظمة عمر بالغض من شأن كل عظيم ، لينسب الفضل وكل فضل إلى عظيم العظماء وهو الله .

وعظمة خالد أن تخلى مختارًا وبملء إرادته عن مكانته ومنزلته بدون أدنى تردد .

وكأنى بخالد بعد أن حمل إليه أبو عبيدة بن الجراح قرار العزل ، قد أخذ فى نزع النياشين والأوسمة من على كتفه وصدره ، وكل ما يشير إلى مكانته ومنصبه وكلما تنازل عن جزء من العُجب والغرور والزهو ارتقى درجة فى العظمة من نوع آخر ، وكأنه رأى نفسه من خلال عمر ، وكان هناك صراع وحرب فى نفس خالد ولكنه خبير بفن الحرب وخبير بالسيطرة على الميادين ، فما له لا ينتصر على نفسه وقد انتصر على الأعداء فى كل ميدان ؟! وخطب خالدٌ فى حمص بعد العزل :" إن أميرا المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنيَّة وعسلا عزلنى وآثر بها غيري" فنهض له رجلٌ من السامعين فقال صبرا أيها الأمير ، فإنها الفتنةُ . فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا " .

ومع ذلك يبقى فى نفس خالد شىء لا يستطيع أن يخفيه حتى عن عمر فقال له بعد أن لقيه : " لقد شكوتُك إلى المسلمين . وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ... " .

خالد يتظلم من عمر ، عند من ؟ ليس هناك أحد فوق عمر ، فليكن إلى المسلمين وتبرير ذلك (إنك غير مجمل فى أمرى) .

الذي يتحدث هنا لسان خالد ، أو الجزء الذي فاض ، ولم يستطعْ أن يكظمَه أو أن يسيطر عليه ، إحساس فرَّ من ميدان مجاهدة خالد لمشاعره وأحساسيه ، ولكنه جاء مستسلما وخاضعًا معلنا التسليم (إنك في أمري غير مجمل) .

جرحٌ غائرٌ أحسَّ به الفارس النبيلْ .

لطمةٌ عصفتْ بكل كبريائه .

رجةٌ زلزلتْ أرجاءَ كيانِه .

وكان لا بد لعمر أن يضمد الجرحَ ، يمحو أثر اللطمة ، ويعيد القرار إلى خالد يقول عمر ردًّا على عتاب خالد له : " والله إنك عليّ لكريم ، وإنك إليَّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعدُ على شيء " .

عمرُ يقسمُ ، وليس مضطرًّا إلى القسم ، ولكن مشاعر خالد وحالته النفسية في حاجة إلى هذا القسم : (إنك على لكريم ، وإنك إليَّ لحبيب) .

لا ... ما حدث ليس بيد عمر ، لا دخل لعمر فيه ، عمر ينفذ مبدأً ، وهو أيضًا مضطرٌّ إليه ، مدفوع به ، ولو ترك عمر لهوى نفسه ، لثبت خالدًا ولم يعزله وهو كريم عليه ، وله حبيب ؟!! .

ولم يكتف عمر بذلك ولكنه أرسل إلى الأمصار بأمرولاته أن يعلنوا باسمه وعلى الملأ تبرئة لساحة خالد من كل مظنة أو تهمة أو تقصير " إني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة " . وفي رواية " فخشيتُ أن يُوكَّلوا إليه ويُبتَلَوْا "

خطورة العظمة على المعظِّم :

لا يرى عمر بأسًا في إعجاب المعجبين بشخص ما ، يرونه أهلا بذلك ولا يجد ضررًا في تقدير كل ذي مقام ومنزلة ، فهو يعطي كل ذي حقٍّ حقَه ، ويرى أن هذا فرضٌ وضرورةٌ لا محيص عنها ، وإن عدمَ تقدير أصحاب الفضل أو من هم جديرون بالتقدير نوعٌ من اللؤم في الخلق وخسة في الطبع : " عن يحى بن سعيد : قال : أمرَ عمرُ حسين بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة . قال حسينٌ : فلقيتُ عبدَ الله بن عمر فقال له حسينٌ من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يؤذن لي ، فرجع حسينٌ فلقيه عمرُ فقال له : ما منعك يا حسينُ أن تأتيني ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبدُ الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليكَ فرجعتُ : فقال عمر : وأنتَ عندي مثله ! وهل أنبت الشعرَ على الرأسِ غيركمُ " ؟

والناس حين يعجبون بشخص ويعظمونه ، لا يقفون بالإعجاب والتعظيم عند حد ولكنهم يتجاوزون كل الحدود ، ويفيضون عليه من الصفات والخلال الكثير ويمنحونه قدرات ومواهب تفوق المعقول ، ليقدر على ما لا يقدرون عليه ، ويستطيع عمل ما لا يستطيعونه ، هذا الإحساس يحيط شخصية العظيم بهالة من التقديس ترفعه فوق مصاف البشر ، وقد مرَّ عمرُ بتلك التجربة ، وابتلى بها وزلزل زلزالا شديدًا .

فلم يصل أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله وسلم إلى درجة عليا من الإعجاب بمحمد كما وصل عمر ، ولم يمتلىء قلبُ ونفسُ أحد بمشاعر التجلة والتوقير والاحترام كما ملأت تلك المشاعر قلب ونفس عمر .

تلك المشاعر أفاضت على رسول الله شيئا من القداسة ، محمد بالنسبة لعمر شيء مقدس ، هذا الإحساس لم يكن عمر واعيا له تمام الوعي ، ولكن أفعاله وتصرفاته تدل على ذلك .

فحيثما يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط جمع من أصحابه ، ويَنَـلْهُ شىء ولو يسير أو هين ، يكن أول الغاضبين ، وأول المدافعين ، وأول المدحضين عن رسول الله ويصل بذلك إلى غاية ومنتهى الأمر ، إلى درجة أن يمد يده إلى مقبض سيفه ، ويطلب الإذن من رسول الله أن يعمل سيفه !... لم عمر دون بقية الصحابة؟!

يقول فى إحدى خطبه :" كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه فكنتُ عبده وخادمه وجلوازه ، وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمتُ على الناس لمكان أمره".

- عبده .
- وخادمه .
- وجلوازه .

توقير وإجلال واحترام وإعزاز يصل إلى درجة التقديس ، ومع ذلك فإن عمر لم يكن يستنيم لهذا الإحساس ، وإنما كان يقاومه مقاومة شديدة وفى أحيان كثيرة كان يتغلب عليه ، فكان يناقش ويحاور ويستفسر أو أن الإحساس الذى كان يشعر به نحو نبيه يريد أن يزيده رسوخًا من خلال الاستفسار والمناقشة والمراجعة ، لأنه على يقين أن تلك المناقشة والمراجعة ستكون فى صالح رسول الله ، وسيكون فى جانب الحق والحق فى جانبه ...مثل سؤال الطالب معلمه ، وهو على يقين أن معلمه سيجيب وبذلك تترسخ مكانة المعلم فى نفس تلميذه ، فسؤال الطالب ليس عن شك أو ريب فى قدرة معلمه ، بقدر ما هو يقين وثقة بتلك القدرة .

" لقد كان عمر بن الخطاب معجبًا بمحمد غاية إعجابه محبًّا له غاية محبته ولكن الإعجاب بالبطولة كان صفة من صفاته ، ولم يكن صفته الأولى التى تغلب على جميع الخلائق . فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريقا إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهى معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف " (١)

وهذه خصيصة أخرى من خصائص العُمريَّة ، عاطفة التقدير والإعجاب تصل إلى منتهاها وتتجاوز حدودها ، وتصل إلى مرحلة من مراحل التقديس ، ولا نقصد من كلمة التقديس المعنى الحرفى للكلمة ولكنه نوع من الإعجاب والتقدير والإجلال يصل إلى ذروة الذرى إلى الدرجة التى يستهان فيها بفداء النفس ، وكل غال من الأنفس عند الإنسان .

ومع كل هذا التقدير من عمر للنبى .

ومع كل هذا الإجلال من عمر للنبى .

ومع كل هذا الإعجاب من عمر للنبى .

ومع كل هذا التقديس من عمر للنبى .

فإن الطبيعة العُمرية تفرضُ على عمر ألا يذوبَ فى شخصية المعجَب . العمرية تتماسك وتحافظ على كيانها وذاتها واستقلالها من كل ما يهدد هذه الذات أو هذا الكيان... " الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ولا يهدد (الشخصية) بالفناء والزوال فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران ، فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر ولم يكن أحد مستقلا

١- عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد (٦١) .

برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر فهو آية من الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صداقة الرأى عند ذى الرأى الصريح"[1].

نعم ، إن العظماء لتتضاءل عظمتُهم أمام عظمة النبى محمد . ولكن العظيم الحق هو الذى يحافظ على عظمته أمام هذا الصرح الشامخ والقمة العليا ، وهذا التضاؤل لا ينال من عظمته ، أنه بمثابة انحناء عظيم لأعظم منه .

وكانت عظمة الرسول تتطاول وتتشامخ أكثر فأكثر حينما لا يجعل عظمته تطغى على عظمة من حوله ، بل يحافظ عليهم ويعلى من شأنهم ويستثير مكامن العظمة فيهم ويصنفهم التصنيف الذى يليق بكل منهم ، ويرفع من شأنهم ، فهذا الصديق وهذا الفاروق وهذا سيف الله وهذا أسد الله وهذا أمين الأمة وهذا باب مدينة العلم ... إلخ .

ولن ينسى عمر كلمة قالها النبى له ، حينما استأذنه فى العمرة فأذن له وقال "يا أخى لاتنسنا من دعائك " فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : " ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخى ! ... "

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف اعتداد عمر بذاته وثقته فى شخصيته واستقلاله برأيه ، فكان به رفيقا ، وعرف كيف يسوس تلك النفس الوثابة الطموح .

وكما قلنا فى فصل سابق أن عمر لا خيرة له فى تلك الطبيعة ، فهو يتعجب من مراجعته رسول الله وإصراره على تلك المراجعة .تأمل هذا وهو يسردُ واقعة الصلاة على عبد الله بن أبىّ : " عن عبد الله بن عباس قال : سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: لما توفى عبد الله بن أبى . دُعِى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف

١- عبقرية الصديق - عباس محمود العقاد (١٤٨) .

يريد الصلاة عليه تحولتُ حتى قمتُ فى صدره فقلت يا رسول الله؛ على عبد الله بن أبى تصلى! وهو القائل كذا كذا . أعدد أيامه ورسول الله يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال:أخّر عنى يا عمر ، إنى خيرتُ فاخترتُ وقد قيل لى (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) لو أعلم أنى لو زدتُ على السبعين غفرت لهم لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبًا لى ، وجراءتى على رسول الله والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدًا) إلى قوله (فاسقون) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل " .

تأمل قول عمر : (فعجبا لى ، وجراءتى على رسول الله ، والله ورسوله أعلم)

عمر يتعجب من مراجعته للرسول .

وجراءته على من ؟

على رسول الله ، كيف يهم الرسول على فعل شيء وتناقشه وتراجعه يا عمر؟!!

ولم يكتف بذلك بل أكثر عليه ، إلحاحا وإصرارا على المراجعة .

ولم يكتف عمر بالكلام ، ولكنه حال بين رسول الله وتأدية الفعل والرسول يقول (أخر عنى يا عمر) .

وتأمل وأمعن فى التأمل موقف رسول الله (ورسول الله يبتسم) وكأنى برسول الله كان ينتظر تصرف عمر هذا وإلحاحه وإصراره وكأنى برسول الله يعلم ما يدور بخلد عمر .

صراحة ، صدق ، شجاعة ، جرأة من عمر ، يريد أن يعرف ويعلم ويطمئن

الكثيرين حول رسول الله يسلمون إن ما يفعله رسول الله صواب كل الصواب سواء عرفوا حكمة فعل رسول الله أم لم يعرفوا .

البعض لديه قناعة واقتناع بكل ما يفعله رسول الله

البعض لا تواتيه الجرأة والشجاعة أن يراجع رسول الله .

البعض لديه من الإيمان برسول الله ما يجعله فى غنى عن مزيد من الإيمان أو ترسيخ هذا الإيمان .

أما عمر فقد كان لديه قناعة واقتناع ، ولكنه يريد أن يصل إلى منتهى القناعة والاقتناع بحيث لا تبقى ذرة أو حكة فى صدره .

ولديه من الجرأة والشجاعة أن يراجع رسول الله معتمدا على ما لدى رسول الله نحوه من حب ورأفة ورحمة ولديه من الإيمان برسول الله ، ولكنه يطمح إلى المزيد من الإيمان وإلى ترسيخ هذا الإيمان بحيث لا ينال منه شىء .

وإذا كانت النبوة فى معنى من معانيها هدفا سماويا متلبسا بطموحات ورغبات إنسانية ، فقد تصادف تلك الطموحات النبيلة والرغبات الشريفة شخصية إنسانية وتمتلئ جوانح تلك الشخصية بالطموحات والرغبات من خلال معايشتها الصادقة والحميمة لشخصية النبى ، وتظل الشخصية تسمو وترقى وتشف محاولة ما وسعها الجهد أن تقترب من الهدف والمقصد السماوى ، وتنجح أن تقترب ويفيض عليها هذا الاقتراب الكثير من الرشد فى الإدراك والسداد فى الحكم والحدة فى البصيرة والقوة فى الحق ، وفى أحيان نادرة ومشهودة توفق فى أن تصل إلى المقصد السماوى ، وهذا فى حد ذاته يحقق نوعًا من الاختراق لحدود الذات الإنسانية وتجاوز لقدراتها وإمكاناتها بحيث تصل إلى مقام النبوة ، أو لنقل تقترب من هذا المقام بجهد إنسانى بحت ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه : " قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فإن يكن من أمتى أحد فعمر " .

ألم يقل رسول الله : " إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه " ؟!

وألم يقل رسول الله : " إن الحق بعد رسول الله مع عمر " ؟!

وألم يقل رسول الله : " عمر بن الخطاب معي حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان "؟!

وألم يقل رسول الله : " لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب " ؟!

ألم يصرح هو أنه وافق ربه ووافقه ربه في أمور ثلاث .... " عن أنس قال: قال عمر وافقتُ ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

قلت يا رسول الله إنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب .

وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ، فاستقريت أمهات المؤمنين واحدة بعد واحدة وأقول والله لئن انتهيتن والله ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن. قال: فأتيت على بعض نسائه . فقالت يا عمر : أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تكون أنت تعظهن . فأنزل الله عز وجل:

(عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ....) [1].

" عن نافع عن ابن عمر. قال: قال : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر بن الخطاب إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر رضي الله عنه ".

١- سورة التحريم : من الآية ٥ .

حتى فى ميدان المعركة الذى يجب أن يلتزم فيه الجندى بأوامر قائده التزامًا حرفيا أو ينفذ أوامره بدون مناقشة ، يخالف عمر تلك الأوامر " عن البراء قال : لما كان يوم أحد جاء أبو سفيان بن حرب فقال : أفيكم محمد ؟

فقال رسول الله : لا تجيبوه .

ثم قال : أفيكم محمد ؟

فقال رسول الله : لا تجيبوه .

ثم قال : أفيكم محمد ؟

فلم يجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفيكم محمد ؟

فلم يجيبوه .

فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟

فلم يجيبوه ... قالها ثلاثا . ثم قال : أفيكم ابن الخطاب ؟ قالها ثلاثا فلم يجيبوه .

فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدو الله ، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليهم وسلم وأبو بكر و أنا أحياء ولك منا يوم سوء " .

قد يقول قائل إن تلك المخالفة من عمر لأوامر النبى لا تحمد له ، والأمر أمر قتال ومناجزة بين المسلمين والكفار عقب غزوة أحد ولكن تلك المخالفة من عمر لم تجد إنكارًا أو معارضة من النبى ... ولعل رسول الله كان يريد خداع أبى سفيان أن يبنى حساباته بعد المعركة على غير أساس من الواقع ، فيريد أن يوهمه أن الرسول مات وأبو بكر مات وعمر مات ولكن حينما جهر عمر بالحقيقة ...رأى الرسول أن الجهر بالحقيقة سيكون أوقع وأضر بالكفار مما لو أخفاها يبتغى بذلك الخداع وسيكون أدعى لرفع الروح المعنوية

للمسلمين والدليل على ذلك أن الرسول بعد ذلك أمر أن يجيب أبا سفيان " عن عكرمة أن أبا سفيان بن حرب لما قال : اعْلُ هبل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، قل : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان لنا العزَّى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله قل : الله مولانا ولا مولى لكم"

وليس استقلال عمر بشخصيته ورأيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل أو يمحى لمجرد رد من رسول الله ، بل يظل عمر محافظا على هذا الاستقلال ومتمسكا برأيه إلى أن يتكشف الأمر ، وهو لا يترك مكانه هذا ، ويتنازل عن رأيه إلا إذا كان هناك أمر إلهى ، حينئذ يدرك عمر ألا مناص من أن يرجع عن رأيه :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1]

فقد خرج الأمر من دائرة الحوار والمراجعة ، وحسم تدخل الوحى كل مراجعة من قبل عمر .

" عن أبى وائل ، قال : قال سهل بن حنيف فى الصلح الذى كان بين رسول الله وبين المشركين ، قال : فجاء عمر فقال :

يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على باطل ؟

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية من ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟

١- سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

قال : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا " .

المفروض أن يتوقف عمر حينما أجابه رسول الله بهذا الحديث (إنى رسول الله) وهذا الاتفاق أو العهد أو الصلح الذى أعطاه للكفار ، والذى سيترتب عليه أمور كثيرة تصرف فيه الرسول منه كونه رسول الله ، وتأمل استخدام رسول الله (إنى) للتأكيد أو لتذكير عمر ، أو لإدخال الطمأنينة عليه (لن يضيعنى الله أبدًا) فمهما كان ظاهر الصلح فى غير صالح المسلمين ، وإنه يحقق فائدة وجدوى للكفار إلا إنه فى حقيقة الأمر على غير ذلك ، عمر لم يرعو... الأمر هنا ، اختلاف بين نبى وبين رجل ، بين نبى يدرك بحسه النبوى أو برؤية الملهم أن الأمور لن تصير بحسب الظاهر منها أو المعلن عنها ، وأن ما كرهه المسلمون اليوم سيكون فيه خير كثيرٌ غدًا .

وبين رجل يحكم عقله ومنطقه وغيرته وغضبه وأنفته وكبرياءه " فانطلق عمر ولم يصبر متغيظا حتى أتى أبا بكر. فقال يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : فعلام الدنية فى ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم .

قال : يا بن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا " .

فنزل القرآن على محمد بالفتح . فأرسل إلى عمر فأقرأه . فقال يا رسول الله أو فتح هو ؟

قال : نعم .

فطابت نفسُه ورجع " .

عمر يلخص القضية فى صراع بين الحق والباطل ، والحق دائما منتصرٌ. قتلى الحق فى الجنة ، وقتلى الباطل فى النار ، فإما نصر تقرُّ به الأعين ، وإما شهادة تسر بها الأرواحُ إذا كان الأمر هكذا : فلم نعطى الدنية ؟ ولم نقبل ما دون ذلك؟ وغاب عن عمر وهو فى ذروة غضبه أن الرسول إذا رضى شيئا ووافق عليه فمحال أن يكون هذا الشيء دنيّ ، لأن الذى يسره ووفقه إلى هذا القبول والرضا هو اللّه .

ولكن كما قلنا هو اختلاف بين نبيّ ورجل .

وإنه ليظل على موقفه وإصراره إلى أن يأتى الوحى حينئذ يدخل الأمرُ فى مجال التسليم والخضوع والاقتناع .

جميع المواقف كان عمر محتفظًا بشخصيته وبذاته من أن ينالها وهنٌ أو ذوبان فى شخصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو أن يسمحَ بالهالة المقدسة التى كان يحيط بها رسول اللّه ، أن تبهر عقله وتسلب إرادته على أن يراجع ويناقش ويحاور ويستفسر بكل جرأة وصراحة وشجاعة .

موقف واحد ، وفى لحظات ، انصهرت تلك الشخصية الجبارة وذابت تلك القوة الجبارة ، لحظة موت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكأن تلك الأسوار الفولاذية التى أقامها عمر للحفاظ على ذاته وشخصيته واستقلال عقله قد تداعت وتصدعت ، وكأنه لم يقمها إلا للدفاع عن ذاته وشخصيته أمام عظمة وقدسية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

" فالموقف نادر والبلية به خليقة أن تبتلى الرجل فى كل ما ينطوى عليه من بديهة وروية وابتلى به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن محمدا قد مات .

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته ، الذى لم ينبهه منبه قط إلى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام فى دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترئ على الصديق الذى يحبه ذلك الحب ويجله تلك التجلة ويعتقد فيه تلك العقيدة وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق يرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء " [1].

شيء واحد يكعم عمر ، ويجعله يثوب إلى رشده ، وهو فى هذا البلاء العظيم ألا وهو القرآن ينزل على تلك النفس الجبارة والإرادة الصلبة فيجعلها تلين وتخشع "عن أبى سلمة عن عبد الله بن عباس ، : أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر. فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت قال الله- تعالى -:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[2]

وقال عمر بعد ذلك : والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى أهويتُ إلى الأرض " .

واستوعب عمرُ الدرس ، أن لا قدسية لأحد سوى لله ، ولا فضل لأحد سوى لله العظيم هو الله ... ويجب أن يفهم ويعى الناس ذلك ، فإذا أعجبوا بأحدٍ وفتنوا به فتونًا فيجب أن يزل هذا الشخص من منصبه أو موقعه ليحال بينه وبين الناس فالناس

١- عبقرية الصديق – عباس محمود العقاد (٦٩).
٢- سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

يفكرون بقلوبهم ، ويتصرفون وفق عواطفهم ومشاعرهم ، ومن السهل التأثير فى تلك الكتلة من المشاعر والعواطف العمياء ، ومن اليسير أن يساقوا إلى غرض ومقصد قد لا يكون فيه صلاحهم أو صلاح الأمة . مثلما فعل عمر مع خالد بن الوليد وقد يعترض معترض ، فهذا فيه استئصال لنوعية العظماء من الأمة فإذا كان مصير كل عظيم الإبعاد والتعتيم والعزل فنحن مثل الهرة التى تأكل أولادها وتلك أقسى وأفدح ضريبة يدفعها العظيم .

والرد على هذا .

أنه ليس كل عظيم يفتتن به الناس ، بل هناك الكثير من العظماء لا يعرف الناس عنهم شيئًا ، حتى وإن عرفوا فقد لا ينالون تقديرًا يتوافق وعظمتهم إذن ليس هو قانون سنه عمر، ويسير على نهجه إزاء كل عظيم ... ولكن هناك نوعية معينة من العظماء بلغت درجة فاستهوت الناس وفتنوا بها ، وخطر تلك الشخصية يتمثل فى

أن تلك الشخصية ستلقى ظلالاً وتعتيما على من حولها من شخصيات قد يقدمون مثلما قدمت ، وقد يفوقونها ، وقد يقدمون أشياء أخرى على نمط آخر تفيد الأمة والجماعة... نعم خالد بن الوليد نوع فريد ولا نظير له من العظماء ، لا أحد يمارى فى ذلك وقدم الكثير .. انتصارات وفتوحات .. ولكن هناك غيره ، لديه القدرة والرغبة لأن يسهم وفى حاجة إلى أن نفسح له المجال ثم إن الدور الإنسانى مهما عظم له حدود يقف عندها والعطاء يصل إلى الذروة ثم يبدأ فى التناقص والتضاؤل والأمم والدول دائما فى حاجة إلى دماء جديدة تثرى عقلها ووجدانها وتضيف إلى رصيد خبراتها ما يمكنها من أن تتطور وتتقدم .

فمن الظلم لشخصية العظيم أن يظل فى مركزه ومنصبه إلى أن يتجمد ويفقد القدرة على العطاء .

ومن الظلم لمن حوله أن يجدوا الأبواب موصدة فتحرم الأمة من عطائهم الذى لا تدرى مقدار قيمته وفائدته .

إن شخصية العظيم لها من القدرة أن تضعف شخصيات الناس وتسلب إرادتهم وقلما يأتى مسلوب الإرادة بخير.... فإذا أمَرَ فأمره مطاع بلا مناقشة ، وإذا نهى فلا تعقيب وإذا قضى فلا مراجعة لقضائه .. وهذا أخطر ما يكون فى بداية تأسيس الدول ، والناس حديثو عهد بالأنظمة التى تجمعهم على حكومة واحدة وحاكم واحد .

إسناد الفضل إلى تلك الشخصية والنجاح والتوفيق والانتصار قد يضعف ثقة الناس فى الله ، وهذا أخطر ما يبتلى به الناس والأمم على حدٍّ سواء.

وعمر لا يخشى على الناس من شخصية العظيم فقط ، بل يخشى على الناس من أى شىء يخلعون عليه صفات التقديس حتى ولو كان حجرًا أو شجرًا ، فقد قال وهو يطوف بالبيت وقد قصد لثم الحجر الأسود "والله إنى لأعرف أنك حجر لا يضر ولا ينفع ولو لم أرى رسول الله يقبلك ما قبلتك قط " .

وكذلك حينما رأى الناس يأتون الشجرة التى بويع رسول الله تحتها بيعة الرضوان يصلون عندها فأوعدهم وأمَرَ بها فقطعت .